مقومات النشاط الحرفي وتنظيمه بتيهرت على عهد الرستميين

(160 –296 هـ / 777–909م)

د. بوشنافي محمد
جامعة سيدي بلعباس

مما لا شك فيه أنّ تأسيس الدولة الرستمية في عام(160هـ/ 777م) من قبل عبد الرحمن بن رستم كأول دولة مستقلة عن الخلافة المركزية ببغداد، كانت له ايجابيات عديدة على بلاد المغرب الأوسط في شتى المجالات، خاصة بعد حالة الفوضى والاضطرابات التي عرفها في عهد الولاة .

وتبرز مظاهر هذه الايجابيات في سيادة الاستقرار والهدوء والأمن، مما دفع النّاس إلى البناء والتعمير وممارسة مختلف الأنشطة الاقتصادية بهدف تحسين مستواهم المعيشي وتوفير كل ما يحتاجه المجتمع، خاصة وأنّ الأئمة الرستميين عملوا جاهدين لتوفير كل الظروف حتى يمارس هؤلاء أنشطتهم بكل حرية، ما عدا ما كان يحدث من فتن وصراعات من حين لآخر أثرت سلبا على هذا النشاط. وبفضل ذلك أضحت تيهرت حاضرة من حواضر البلاد الإسلامية تعرف توسعا عمرانيا واقتصاديا، فأَمَها النّاس من كل الأنحاء للاستقرار بها لما رأوه أو سمعوه عن عدل أئمتها وازدهارها، حتى قال فيها اليعقوبي أنّها" جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب بها أخلاط من النّاس" (اليعقوبي،أ. 1890: 123).

وبفضل هذه السياسة تشكلت لدى سكانها في فترة وجيزة ثروة كبيرة، استغلت في بناء القصور الفخمة واقتناء الأشياء الثمينة من ملابس ومجوهرات وغيرها، لأنّ سنة التطور تتطلب ذلك، وهذا كله ساهم في ازدهار النشاط الحرفي بالمدينة، من أجل تلبية متطلبات حياة الرفاهية التي

أصبح مجتمع تيهرت يعيشها، بعدما كان يعيش حياة البداوة ويمتهن الفلاحة والرعي، وبمجيء الرستميين وبناء تيهرت أضيفت حرف أخرى تمركزت داخل المدينة، في حين بقيت الحرف السابقة الذكر تمارس في أحواز تيهرت أو بعيدا عنها، لأنّ القبائل التي مارست حرفة الرعي كانت مضطرة إلى التنقل بحثا عن الكلأ والماء.

إلا أنّه رغم ما قدمته هذه الدولة للمنطقة، فإنّها لم تنل نصيبها من الدراسة والاهتمام، خاصة وأنّ المصادر التي عاصرت هذه الدولة أو القريبة منها أغفلت الحديث عن كثير من جوانب الحياة في هذه الدولة، واقتصرت على بعض الإشارات كتلك التي وردت في كتب الرحالة والجغرافيين مثل اليعقوبي والبكري وابن حوقل، ويعود ذلك إلى أسباب سياسية ومذهبية (دبوز،م.1963: 253 – 254). ولكن لحسن الحظ احتفظت لنا بعض المصادر بمعلومات هامة عن هذه الدولة، ولعل أهمها على الإطلاق ما ورد في كتاب ابن الصغير الذي عاش بتيهرت، ويعود الفضل في إخراج هذا الكتاب إلى الوجود إلى المستشرق – موتيلانسكي –، وطبع ضمن أعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر الذي انعقد في الجزائر عام 1905م، يضاف إليه المصادر الإباضية كالشماخي والدرجيني وأبو زكريا. إلا أنّ ما يعاب على هذه المصادر تطرقها إلى جوانب محددة وإهمال أخرى، فهي تطنب في الحديث عن القضايا السياسية وتهمل المجالات الاقتصادية والاجتماعية، ولا تتطرق إليها إلا عرضا. وبالتالي فإنّ تتبع التطور الاقتصادي، ولاسيما الحرفي والاجتماعي لهذه الدولة يبقى من القضايا الصعبة التي تواجه الدارس.

يتطرق موضوعنا إلى محاولة إبراز العوامل المختلفة، طبيعية وبشرية وحيوانية، التي ساهمت في ازدهار النشاط الحرفي بتيهرت الرستمية،

معتمدين في ذلك على ما جمعناه من معلومات وإشارات جاءت متناثرة في المصادر، وبالخصوص كتب الرحالة والجغرافيين، وعلى أساسها تم وضع تصور بسيط لمظاهر هذا النشاط، والذي حصرناه في حرفة الرعي والفلاحة والمهن، وهي أنشطة أساسية تكمل بعضها بعضا، كما سيقتصر حديثنا عن تيهرت وأحوازها، مهملين باقي أنحاء هذه الدولة التي وقع خلاف كبير بين المؤرخين في وضع حدود قارة لها. كما يمكننا أن نطرح الإشكاليات التالية لهذا الموضوع : إلى أي مدى ساهم موقع تيهرت وجغرافيتها في ازدهار النشاط الحرفي ؟ وما مدى وفرة المقومات للممارسة الحرفية؟ وما هي العوائق التي واجهت هذا النشاط؟.

1- الفلاحة ومقوماتها

تجمع شتى المصادر على أنّ تيهرت وضواحيها توفرت على إمكانيات فلاحيه متنوعة، ساهمت في ازدهار هذه الحرفة، ووفرة الإنتاج الفلاحي، وتصدرت الأراضي الخصبة قمة هذه الإمكانيات باعتبارها مركز الإنتاج؛ إذ تذكر المصادر أنّه قبل مجيء الرستميين إلى المنطقة،كانت أراضيها عبارة عن غابات تسكنها حيوانات مفترسة (أبو زكريا،ي.1984: ص81-82).

وقد بذل الأئمة جهودا كبيرة من أجل استصلاحها، وذلك منذ عهد الإمام عبد الرحمن الذي استغل تلك المساعدات التي أرسلها إليه أهل مذهبه من المشرق، وشملت ثلاثة أحمال من الأموال، والتي لم يقبلها إلا بعد استشارة الأعيان، فخصص جزءا للفقراء وأهل الحاجة من السكان، وجزءا آخر لشراء الخيل والسلاح، وما تبقى خصصه لأعمال "العمارة والبناء وإحياء الأموات(أراضي الموات) وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك" (ابن الصغير.1986:35-36)، فساهم ذلك في تنشيط الاقتصاد عموما والفلاحة خصوصا.

لقد خضع استغلال هذه الأراضي إلى تنظيم محكم يخضع إلى طريقتين، الأولى تختص بالاستغلال المباشر الذي يمارسه صاحب الأرض بنفسه، ولذلك يضطر إلى الإقامة في مزرعته خارج المدينة، أما الطريقة الثانية الاستغلال الغير المباشر، فمرده أن كثيرا من أغنياء تيهرت وأصحاب الأراضي كانوا يحبذون الإقامة في المدينة وتوكيل موظفين أو ووكلاء يسهرون على خدمة الأرض واستغلالها، ولعل من أبرز هؤلاء محمد بن حماد الذي كان يسكن بالمدينة ويزور ممتلكاته خارجها من حين لأخر حيث امتلك " على بعض أميال من المدينة منزل يقال له المثلث قد جمع الأشجار والأنهر والمزارع والنخل والقصور" (ابن الصغير.1986: 106)، وقد كان مع محمد بن رباح سببا في الفتنة التي وقعت في عهد الإمام أبي حاتم. وهي الحالة نفسها التي كان عليها بكر بن عبد الواحد ومحمد بن عرفة. وبالتالي فإنّ هؤلاء الوكلاء كانوا المشرفين على كل ما يتعلق بخدمة الأرض، وخاصة توفير كل ما يحتاج إليه العمال من آلات وبذور ومياه (جودت،ع.1992: 19 -20).

ولا يخفى علينا أنّ المصادر الجغرافية رصدت لنا مدى خصوبة الأراضي التي ساهمت في ازدهار حرفة الفلاحة وكثرة المنتوج وتنوعه في تيهرت، وفي هذا الصدد ذكر البكري بأنّ أرضها كانت تدر كل المحاصيل " وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما وسفرجلها يسمى بالفارس" (البكري،ع.دت: 67)، أما ابن حوقل فإنّه يشير إلى كثرة الأشجار والبساتين بقوله " ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وحمامات وخانات ...ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات " (ابن حوقل،ن.1992 :86)، ويؤكد اليعقوبي الفكرة نفسها بقوله " لم يجذب زرع ذلك البلد قط إلا أن يصيبه ريح أو برد" (اليعقوبي،أ.1890: 139).

وينطبق الشيء نفسه عند ابن الصغير الذي أفرد عدد من الفقرات التي تبرز تلك الوفرة في كثرة البساتين التي ضمت أشجارا تنتج شتى أنواع الفواكه والثمار، حتى أنّ منزل محمد بن حماد الموجود خارج المدينة " جمع الأشجار والأنهر والمزارع والنخل" كما سبق ذكره، وإلى جانب ذلك وجد النخيل والزيتون الذي كان يستخلص منه الزيت وكذا الخشب الذي كان يستغل في صناعة الأثاث والبناء (جودت،ع.1992: 48-49)، يضاف إلى ذلك محاصيل أخرى تستغل في الإنتاج الحرفي مثل القطن والكتان إضافة إلى السمسم والكسبر والكمون وغيرها (الميلي، م.1989: 76).

وما من شك، أنّ الحبوب من أهم المحاصيل في تيهرت التي تدخل في التغذية، حتى قيل أنّ أندر الحبوب "كانت ترى من مسافة أيام كالجبل" (دبوز،م.1963: 316)، وربما يكون في هذا القول نوع من المبالغة ولكنه يعبر على وفرة المحصول، وبالتالي ترافق مع كثرة الحبوب وجود المطاحن بالمنطقة، فقد وجد باب بها يدعى باب المطاحن، وهو أحد الأبواب الأربعة للمدينة إلى جانب باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس (البكري،ع.دت:66). ونظرا لفائض المحصول فإنّ الحصادين كانوا إذا أنهوا عملهم تركوا ورائهم كميات كبيرة من الحبوب، يقوم الفقراء وأهل الفاقة بجمعها، ومن هؤلاء شخص من أهل نفوسة يدعى أبو مرداس مصاهر، كان يجمع ما يكفيه من قوت لمدة سنة كاملة (جودت،ع.1992: 40).

وإلى جانب خصوبة الأراضي ووفرتها، عرفت تيهرت وأنحائها وفرة الثروة المائية، حيث تقدم لنا شتى المصادر معلومات جد وافية عن هذه الثروة، فكانت محاطة بعدد هام من الأدوية والعيون والسواقي، وفي هذا المجال يقول البكري" وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه وهو في قبليها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش، ومن تاتش

شرب أهلها وبساتينها وهو في شرقيها " (البكري،ع.دت:66-67)، ومن هذا القول نستخلص أنّ تيهرت توفرت على ثروة مائية هامة، وإلى جانب النهرين المذكورين أنفا واللذان كانا يصبان في واد ينبع من عين بجبل سوفجج، كان هذا الوادي يتجه شرقا ليلتقي بوادي القرعة، ثم بوادي آخر يسمى وادي الوحش، ومجموع هذه الأودية تشكل وادي يمر جنوبي شلالة(الحريري،م.1987: 231).

ومن المفيد التذكير بأنّ العوامل المناخية وراء وفرة المياه بالمنطقة، ونظرا لموقعها الاستراتيجي جلبت أنظار الرحالة والجغرافيين، فهي تقع في منطقة الهضاب العليا التي تتميز بشدة بردها وشتائها الطويل، وتتساقط عليها كميات كبيرة من الأمطار (ابن عذاري،م.1983: 198)، ويذكر البكري أنها "شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج "، وفي المنحى نفسه يورد قول رجل رأى حر الشمس في بلاد الحجاز، فخاطبها قائلا " احرقي ما شئت فو الله إنك بتاهرت لذليلة" (البكري،ع.دت: 67)، والعبارات نفسها وردت عند ياقوت الحموي في معجمه حين يقول" كثيرة الأنداء والضباب والأمطار" (الحموي، ي.1977: 6)، ويشير ابن عذاري أنّ أحد ظرفاء تيهرت سئل "كم الشتاء عندكم من شهر في السنة؟" قال " ثلاثة عشر شهرا" (ابن عذاري،م.1983: 198)، ومن ذلك ما أنشده بكر بن حماد في قصيدة تعبر عن قساوة مناخ تيهرت، ومما جاء فيها : (البكري،ع.دت: 67).

ما أخشن البرد و ريعانه وأطرف الشمس بتيهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنما تنشر من تحتت
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت كفرحة الذمي بالسبت

عمد سكان تيهرت على التدبير العقلاني للمياه من خلال مشاريع مائية، فأحسنوا استغلال الثروة المائية في الشرب من خلال شق القنوات لإيصال الماء إلى البيوت داخل المدينة "وشرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون تأتي بعضها من صحراء وعضها من جبل قبلي يقال له جزول" (اليعقوبي،أ.1890: 139).

2- الرعي ومقوماته

عرفت منطقة تيهرت منذ أقدم العصور بالنشاط الرعوي؛ حيث اشتهرت قبائلها بالترحال وتربية المواشي، وذلك لملائمة الظروف الطبيعية لهذا النوع من النشاط؛ إذ تقع في منطقة الهضاب العليا التي تكثر بها النباتات البرية التي تشكل مناطق رعوية غنية، جعلت أهلها يركزون على هذه الحرفة ويعتبرونها مصدر عيشهم حتى أن ابن الصغير يذكر "أنّ قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم،كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الشلأ (الكلأ) وغيره" (ابن الصغير.1986: 47). ساهم هذا الوضع في تشكيل ثروة حيوانية هائلة ومتنوعة شدت انتباه الرحالة والجغرافيين، ويؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن حوقل بقوله "وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية" (ابن حوقل،ن.1992: 86).

يستخلص من هذا القول أنّه وجدت قبائل احتكرت هذه الحرفة معتمدة على التنقل والترحال بحثا عن الكلأ والماء، أي أنها عاشت حياة البداوة والبساطة، حيث شكلت الأنعام مصدر رزقها، وكانت كثيرا ما تتنقل إلى أحواز تيهرت بعد موسم الحصاد لترعى في تلك الأراضي، وهو حال قبائل مزاتة وسدراتة، خاصة وأنّ هذه الأراضي كانت تدر محصولا وفيرا يكفي الحصادين وأهل الشاة، كما يجمع أهل الفاقة ما يبقى من

حبوب. ولا يجب أن ننكر ما قامت به الدولة الرستمية لتشجيع هذه الحرفة من خلال تطبيق سياسة محكمة، خاصة استصلاحها للأراضي وتلبية متطلبات أصحاب الأنعام من خلال توفير كل ما يحتاجون إليه من وسائل وإمكانيات، حتى أن هؤلاء كانوا يحضرون إلى المدينة في أوقات معينة فيقايضون ما يحضرونه من سلع كالصوف والجلود والسمن والأغنام ببضائع يحتاجون إليها لتلبية متطلباتهم المعيشية (بحاز،إ.2010 ، 199)، وهذا من دون شك كانت له آثاره الايجابية على النشاط الحرفي في المدينة، من خلال ما تحصل عليه الحرفيون من مواد أولية دعمت وزادت في إنتاجهم .

ومما يبرز نشاط حرفة الرعي وازدهارها على عهد الرستميين، ظهور فئة اجتماعية اكتسبت ثروة طائلة بفضل ممارستها لهذه الحرفة، حيث يرد ذكر اسم بعضهم، ومن هؤلاء يبيب بن زلغين الذي قدرت ثروته من رؤوس الماشية بثلاثين ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار. وكان في بداية حياته فقيرا كما يذكر الشماخي، لكنه استطاع في مدة وجيزة أن يصبح من أغنى أغنياء تيهرت (دبوز،م.1963: 316-317) .

وإذا وضعنا تفسير الشماخي لطريقة تكوين ابن زلغين لثروته جانبا، فإنّه من الأكيد أن هذه الحرفة كانت تدر على أصحابها ثروة طائلة، وهذا ما جعل الأئمة أنفسهم يمارسونها، فلقد كان كل من أبي اليقظان وأبي حاتم من كبار الملاكين للماشية، أما يعقوب بن أفلح فكانت له رؤوس من الأبقار وكان يأمر عماله بحلبها، ثم يشرب ما يستخلص من حليب ولا يتناول شيئا بعده لمدة ثلاثة أيام لزهده وتقشفه في الدنيا (ابن الصغير.1986: 112).

لقد دفع هذا الوضع أن أصبح لأصحاب الشاة دور هام في الحياة السياسية والاقتصادية، مما دفع الإمام عبد الوهاب إلى القول : "ما أقيم هذا

الدين إلا بسيوف نفوسة وأموال مزاتة" (الباروني،س.1938: 43)، ومعلوم أن قبائل مزاتة كانت قد امتهنت حرفة تربية المواشي، كما سبق ذكره، كما نجده يقول في مقام آخر "لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين : أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالاغنام" (بحاز،إ.2010: 200) .

وفي عهد الإمام أفلح تزايد نفوذ هذه القبائل المقيمة حول مدينة تيهرت، حتى أنّ الإمام تخوف على ملكه منها مما جعله يسعى بينها لتشتيت صفوفها بالمكر والخديعة، وفي هذا المقام يقول ابن الصغير " وكانت القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت لما اكتسبت الأموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبر ما نال أهل المدينة حتى خاف أفلح أن تجتمع الأيدي عليه فتزيل ملكه، فلما رأى ذلك أرَش مابين كل قبيلة ومجاورها فأرَش بين لواتة وزناتة ومابين لواتة ومطماطة ومابين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها" (ابن الصغير.1986: 63).

3- الحرف ومقوماتها

ساهمت وفرة المواد الخام في ازدهار الحرف وتنوع الإنتاج ووفرته، إلا أنّ المصادر المعول عليها لا تقدم معلومات ذات أهمية في هذا المجال، ماعدا ما ذكره البكري من أن جبل أرزيو كان يحوي كميات من معدن الحديد والزئبق وخشب العطور (البكري،ع.دت: 70)، فمن الأكيد أن حرفي تيهرت كانوا قد استفادوا من هذه المواد، والدليل على ذلك ما عرفته المدينة من توسع عمراني ونشاط اقتصادي وانتشار للثروة والبذخ.

كما لجأ الرستميون إلى استيراد بعض المواد الأولية لتلبية متطلبات النشاط الحرفي، وخاصة المعادن الثمينة كالذهب والفضة التي كانت تستورد

من السودان وخصصت لصك العملة وصناعة المجوهرات(الباروني،س.1938: 44). إلا أنّ الدارس لهذا المجال يجد نفسه أمام عقبات كبيرة، لضعف المادة التاريخية حول الموضوع في مختلف المصادر، حتى في تلك التي أطنبت في الحديث عن تاريخ هذه الدولة.

وعموما يظهر أنّ النشاط الحرفي بتيهرت عرف ازدهارا مثلها مثل مدن أخرى كالقيروان وفاس وبغداد وغيرها، ومما ساهم في حركية النشاط الحرفي بالمدينة، إضافة إلى وفرة المواد الأولية، تلك التركيبة البشرية المعقدة للمجتمع الرستمي، حيث توافدت على المدينة منذ عهودها الأولى أعداد هامة من البشر من شتى البقاع فاستقرت بها، وهذا ما يؤكده قول ابن الصغير "وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار ...ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي " (ابن الصغير.1986: 36).

تبعا لما سبق يظهر أنّ مجتمع تيهرت شكل تركيبة بشرية عبارة عن فسيفساء، أثرت بشكل ايجابي على النشاط الاقتصادي عموما والحرفي خاصة. لقد قدم هؤلاء الوافدون من مدن عريقة لها تقاليدها الحرفية طبعت بصماتها على الإنتاج المحلي. ومن البديهي أن يظهر التخصص الحرفي في مدينة تيهرت كغيرها من المدن الإسلامية، فكان لكل حرفة سوق أو حي خاص بها، ويتمثل هذا التخصص في سوق النحاسين وسوق الصاغة وسوق النساجين والحدادين وغيرها من الحرف التي كان أصحابها يسعون إلى توفير ما يحتاجه المجتمع في ظل حياة الرفاهية التي أصبح يعيشها تحت حكم الرستميين.

إنّ ازدهار الحركة العمرانية بتيهرت تطلب توفير عدد كبير من اليد العاملة الحرفية، وخاصة جماعة البنائين وما يتصل بهم من حرف، بسبب تزايد أعمال البناء مع تنافس الأغنياء في بناء القصور والحصون ذات الطراز المعماري الراقي، وبالخصوص في عهد الإمام افلح أين " تنافس النّاس في البنيان حتى ابتنى النّاس القصور والضياع خارج المدينة واجروا الأنهر، فابتنى إبان وحمويه القصرين المعروفين لهما بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم وغيره ...وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة قد ابتنت العدوة والجنود القادمون من افريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم" (ابن الصغير.1986: 61-62).

ونظرا لوفرة الصوف والجلود، وما زرع من كتان وقطن، ازدهرت حرفة النسيج، وللمناخ البارد دور في نشاط هذه الحرفة، حتى أن الإمام عبد الرحمن كان قد اشترى من أموال الصدقات"أكسية صوفا وجبابا صوفا" ووزعها على مستحقيها (ابن الصغير.1986: 41). ورافق التطور الاقتصادي والاجتماعي ونمو الثروة بين النّاس ازدهار هذه الحرفة حتى أصبح يراعى فيها الأبهة والمظهر الجذاب، فلما توجه إبان وحمويه إلى قصريهما خارج المدينة أطل عليهما من كان بهما من سكان وعليهما ثياب حمراء وصفراء. (ابن الصغير.1986: 62)

كما عرفت الحرف ذات العلاقة بتربية المواشي ازدهارا بتيهرت، ومنها حرفة الجزارة التي كانت تخضع لمراقبة شديدة من قبل المكلفين بالسهر على النظام في الأسواق، حتى أنهم كانوا إذا " رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه " (ابن الصغير.1986: 88)، وعموما يظهر أن سعر اللحوم كان في متناول فئة عريضة من المجتمع، خاصة مع ما كانت تحضره القبائل الرعوية

إلى المدينة من مواشي، كمزاتة وسدراتة، لتقايضها بسلع أخرى. ورافق ذلك طبعا ازدهار صناعة الجلود.

وعلاوة على ذلك، شهدت صناعة الأواني الفخارية تطورا في تيهرت الرستمية، فقد كشفت الدراسات الأثرية التي قام بها جورج مارسيه عن كثيرا من القطع الفخارية والمطامير والأفران بعد الحفريات التي أجراها في الموقع عام 1940م(جودت،ع.1992: 118). وهناك صناعة الأدوات الحديدية المتنوعة، حيث ذكر ابن الصغير أن الإمام افلح "اتخذ بابا من حديد" (ابن الصغير.1986: 61)، وربما أن الفتن والصراعات كانت الدافع إلى ذلك.

4- مراقبة وتنظيم النشاط الحرفي

إنّ أهم سؤال نطرحه في هذا المجال : هل أوجد الرستميون تنظيما يشرف على حسن سير هذا النشاط الحرفي على غرار باقي المدن الإسلامية؟. إنّ المعلومات حول هذه المسألة قليلة جدا ما عدا بعض الفقرات التي وردت في المصادر، والتي من خلالها يمكننا الجزم بأنّ هذا النشاط خضع لتنظيم مراقبة شديدتين، فلقد كانت الأسواق تمثل الأماكن التي ينشط فيها الحرفيون، ومن المعلوم أن هذه الأماكن في المدينة الإسلامية كان يشرف على مراقبتها وتنظيمها جماعة من الموظفين، ومن هؤلاء المحتسب الذي أوكلت إليه مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير أننا لا نجد ذكرا لهذا الموظف في المصادر التي أرخت لتيهرت الرستمية (جودت،ع.1992: 168) .

ولكن ابن الصغير يقدم لنا معلومات جد هامة حول هذا الموضوع ومن خلالها يمكننا أن نستخلص بأنّ أسواق تيهرت كانت قمة في التنظيم والأمن والنظافة، فنجده يذكر أنه في عهد الإمام أفلح كان صاحب شرطته

إذا تجول في المدينة ليتفقد أحوالها لم يكن يتجرأ على دخول سوق ابن وردة، وكان هذا الأخير مقدما للعجم، ولما اكتسبه من ثروة ومكانة بنى سوقا خاصة به (ابن الصغير.1986: 62-63)، كما أوكلت مهمة الأمن والنظام في المدينة إلى رجال من قبيلة نفوسة، حيث كانت هذه الأخيرة "تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق " (ابن الصغير.1986: 63)، وكان أبو اليقظان لما دخل إلى تيهرت، عين رجالا من نفوسة " يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ......فإن رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها انزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وان رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه " (ابن الصغير.1986: 88).

أما الإمام أبو حاتم فإنه لما دخل المدينة ورأى ما انتشر فيها من فساد الأخلاق والفوضى، قرر تعيين كل من زكار وإبراهيم بن مسكين على جهاز الشرطة، فتمكنا في فترة وجيزة من تطهير المدينة وإعادة النظام فيها، وكان من بين الأماكن التي خضعت لهذا التنظيم، الأسواق التي وجد فيها الحرفيون (ابن الصغير.1986: 116).

وإضافة إلى ما سبق ذكره، فإنّنا لا نملك معلومات حول توزيع النشاط الحرفي في المدينة، ولكن على العموم يظهر أن الحرف النبيلة كالصياغة والخياطة والنسيج كانت توجد في داخل المدينة، في حين أنّ الحرف الوضيعة التي تسبب أذى للنّاس من خلال الروائح الكريهة أو الأصوات المزعجة كالدباغة والحدادة، فإنها كانت تمارس خارج المدينة (جودت،ع.1992 85). أما المطاحن فكانت موجودة على ضفاف المجاري المائية.

ومن الإشكاليات المطروحة أيضا فيما يخص النشاط الحرفي بتيهرت الرستمية، تلك المتعلقة بتنظيم جماعة الحرفيين في ما يمكن تسميته "نقابة حرفية". ولا نجد معلومات وافية حول هذا الموضوع، وهناك إشارة وحيدة في كتاب ابن الصغير حول القضية فصل الحرفيين عن العوام، حيث لما مات الإمام أبو اليقظان" قامت العامة وأهل الحرف ومن لف لفهم فقدموا ابنه أبا حاتم بلا مشورة أحد من النّاس لا من القبائل ولا من غيرهم" (ابن الصغير.1986: 102). إنّ هذه الحادثة تطرح بدورها تساؤلا هاما أمام الدارس ومضمونها، هل استطاع هؤلاء الحرفيون أن يشكلوا قوة ضاغطة حتى أصبحوا أصحاب تأثير في القرارات المصرية للدولة. ومن أين استمدوا هذه القوة؟ هل من كثرة عددهم؟ أم من ثروتهم؟ إن الإجابة على هذه الإشكاليات تتطلب منا أن نتبين الوضع الذي كانت عليه الدولة الرستمية خاصة في أواخر أيامها أين كثرت الاضطرابات والفتن حتى أصبحت العامة –أو الغوغاء- تتدخل في تعيين الأئمة وعزلهم .

في الأخير لا بد من إبراز أنّ النشاط الحرفي بتيهرت عرف ازدهارا كبيرا، لما توفر لدى الحرفيين من مقومات. غير أن منحى هذا التطور لم يكن دائما تصاعديا بل اعترضته في كثير من الأحيان هزات وأزمات سببت تراجعه، فمنها الكوارث الطبيعية والجوائح التي ضربت المنطقة وأثرت سلبا على حياة السكان والاقتصاد، وعلى سبيل المثال ذلك الجفاف الذي ضرب بلاد المغرب ما بين عامي (235-265هـ/ 867-898م)، أو تلك المجاعة التي أصابت المنطقة في عام (285هـ/ 898م)، فأثر ذلك على القدرة الشرائية وسبب هلاك عدد كبير من النّاس(جودت،ع.1992:453-454)، ولكن للأسف الشديد لا نجد معلومات عن آثار هذه الكوارث على تيهرت وسكانها.

يضاف إلى الجوائح والكوارث الطبيعية، ما عاشته تيهرت من حروب وفتن حول الحكم منذ عهد الإمام الثاني عبد الوهاب، إلا أنها اشتدت في أواخر عهد هذه الدولة، وكان من نتائج الصراع بين الإمام أبي حاتم وعمه يعقوب، أن أهمل النّاس فلاحة أراضيهم وتربية مواشيهم، وتاقوا إلى السلم والأمن (ابن الصغير.1986: 113). وفي السياق نفسه عبر ابن حوقل بصدق شديد عما حل بتيهرت بسبب هذه الفتن " وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا - أي منتصف القرن الرابع الهجري- فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت" (ابن حوقل،ن.1992: 93). وكان أعظم خطر واجهته المدينة، وسبب اندثار نشاطها الحرفي، هجوم أبي عبد الله الشيعي عليها في عام (296هـ/ 909م) ونهاية عهد الدولة الرستمية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (1992)، كتاب صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة .

- ابن عذاري المراكشي أبو عبد الله محمد، (1983)، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق و مراجعة ج.س كولان و إ . ليفي بروفنسال، الجزء الأول، ط3، بيروت، دار الثقافة.

- ابن الصغير (1986)، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق و تعليق ناصر محمد و بحاز إبراهيم، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- أبو زكريا يحي بن أبي بكر (1984)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق العربي إسماعيل، ط3، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- الباروني أبو الربيع سليمان (1938)، مختصر تاريخ الاباضية، ط2، تونس، مطبعة الإرادة.

- بحاز إبراهيم بكير (2010)، الدولة الرستمية (160-296هـ/ 777-909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط3، الجزائر، منشورات ألفا.
- البكري أبو عبيد الله عبد الله (بدون تاريخ)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
- جودت عبد الكريم يوسف (1992)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (1977)، معجم البلدان، ج2، بيروت، دار صادر.
- الحريري محمد عيسى (1987)، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160-296هـ)، ط3، الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع.
- دبوز محمد علي(1963)، تاريخ المغرب الكبير، ج3، القاهرة، مطبعة عيسى الحاج.
- الميلي مبارك بن محمد (1989)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم و تصحيح محمد الميلي، ج2، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- اليعقوبي أحمد بن ابي يعقوب بن واضح (1890)، البلدان، ليدن، مطبع بريل.